٤ البحث عن الأصناف الغالبة:

إن أحسن طريقة للدرس قد تكون تلك التي تدعو، كما أوصى بذلك "توبينار" (Topinardإلى البحث عن الأصناف الغالبة في جهة ما. ولذا –يحسن- كما اقترح) الدكتور "لوبلان" -الاقتصار على بعض الأصناف في جهة ما لمقارنتها بأصناف اختيرت بنفس الطريقة في جهة أخرى. ففي المجموعة الأولى المضبوطة على هذا النحو ندرس من جديد شكلها الظاهري الغالب لنقارنه بدوره بشكل ظاهري معين بنفس الطريقة في مجموعات أبعد جغرافيا. فهذه هي طريقة تعتمد على ضبط الأصناف من الناحية التشريحية قبل قيس نماذجها خلافا للطريقة الأخرى التي تبدأ بالقيس قبل ضبط الأصناف.

(وبهذه الطريقة أمكن للدكتور "لوبلان" عزل طرقي في الحجازHoggarمحدد تمام) التحديد بخصائص شتى ومقابل لنسبة كبيرة لمجموعة من السكان محدودة العدد.

وهو يظن أنه يوجد في بلاد القبائل نوع من الأجساد واضح المعالم ولو أنه أقل دقة مما نجد عليه الطوارق. غير انه وإن تشابه الصنفان في طول القامة واستطالة الرأس ودقة الأنف وطوله، فإنهما يختلفان في كل الخصائص الأخرى. ويظهر أن الآمر بالمثل بالنسبة للشاوية وسكان الريف وبني خمير. وما نعرفه عن بربر المغرب الأقصى يمكننا من ضبط صنفين: صنف الشمال الشبيه بالقبائلي، وصنف الوسط والجنوب القريب من " الطوارق".

وهذا البحث في الأصناف الغالبة ما زال في بدايته وسيكون ثمرة المستقبل، إذ أن مقارنة هذه الأصناف من حيث الشكل الظاهري هي وحدها التي ستسمح بإقامة تصنيف علمي. وفي الوقت الحاضر يكون من الصلف أن نقوم بعمل آخر غير تضمين النتائج الحاصلة التي تدل على تجزؤ بلاد البربر من حيث أجناسها. إلا أنه - ما إن تسير لنا معرفة البربري الذي يمكن تسميته بحق: المغربي -حتى يبدو صنفا اجتماعيا له خصائصه الواضحة. وبقدر حرصنا على طرافة البربري نتمكن من إبراز ضرب من الوحدة لتاريخ بلاد البربر.

IIأوائل التاريخ: -

دخول الليبيين لمصر:

من اليقين يأن وادي النيل كان مسرحا لهجومات الليبيين

في الفترات المضطربة وابتداء من أسرة الملوك التينيين الأولى)حوالي ٣٣٠٠ سنة

قبل المسيح(سجلت الوثائق كلوحة "نارمير" انتصارات فرعون على الليبيين فهم

(الذين تسميهم النصوص التهينوTehenouوهم الذين تظهرهم الصور المشخصة)

(متسلحين بالسهام والعصي القاذفةboomerang(والآلهة ناية)Neitتسمى)

"الليبية" في الأنشودتين الرابعة والخامسة ويستحق فرعون الثناء عندما يأخذ التاج

الأبيض العظيم من أيدي هؤلاء الأجانب العظام الذين يحكمون الليبيين بهذا قد تكون

وجدت مملكة مصرية - ليبية في المغرب.

غير مستبعد. وتروي إحدى الأساطير أن كوروبيوس الإقريطي قذفت به العاصفة إلى

(ساحل ليبيا فرجع إلى جزيرته ربانا. وكان أسطول مينوسMinosيتزود في ليبيا من)

(القرينيCyrénaïque(بلا شك بنبات السلفيون)Silphionالذي كان يجني لطيب)

رائحته ومنافعه الطبية. ولا بد أن إمبراطورية البحار الإقريطية أدت إلى تأسيس مراكز

(تجارية على الساحل الإفريقي منها تكون مدينة مينوسminoenneقد أشعت؛)

ودليل ذلك قد نجده في الرسم الذي أزدان به أحد جوانب قبر محفور في صخرة قائمة

)حانوت جمع حوانيت(في جهة مقنة) بين باجة وطبرقة بالشمال التونسي(. ويستدل

سولينياك على وجود علاقات بين الشمال الشرقي لبلاد البربر و"ايجه" قبل مجيء

(الفينيقيين بمشهد بحري غرضه الأساسي مركب عديم الارتفاع على سطح الماءbas

sur l’eauله صار مركزي وشراع شكله شبه منحرف كما يستدل أيضا بأشخاص)

هذا المشهد، ولعل هذه العلاقات هي التي تلقي الأضواء على تأسيس مدينة مشالة

(Meschelaالتي ينسبها ديودرس الصقلي إلى اليونان عند عودتهم من طروادة وعلى)

كيفية حفر الحوانيت. إلا أن "أ. بوتيا" يبدي تحفظات إزاء هذه النظرية، ويكتفي " كلوتز"

بالاعتراف بأن الصور المرسومة على جدران الحوانيت تشبه صورا أخرى اكتشفت في

(دلفDelphes(" كما يكتفي " قزيل)St. Gsellفي حذره المعتاد بأن يؤكد أنها ليست) فينيقية ولا رومانية.

أما المؤثرات الإيجية التي قد تشهد بها الآنية الخزفية البربرية الحالية، فإنها لا تزال مجرد احتمالات بالنسبة للمستوى الحالي لمعارفنا.

وقد ظهر التأثير الفينيقي الثاني منذ القرن الثاني عشر وأصبحت له خطورته في قرطاج التي سيطرت طيلة ألف سنة على تاريخ بلاد المغرب. ودراسة هذا التأثير تتصل بتاريخ العاصمة البونيقية.

وتروي نصوص عديدة، لا نطمئن تماما إلى صحتها، قدوم أبطال اليونانيين الذين خاضوا حرب طروادة إلى ليبيا. ويجب أن نعير رحلاتهم قيمة أكثر من رحلات برسي (Perséeوهرقل والارغنوط. فالاستعمار اليوناني لم يتصل أبدا مباشرة ببلاد البربر.) (ولم يستقر الدوريطانيون على نجد بلاد القريني Cyrénaïque. إلا حوالي سنة ٦٣١) وكانت لهم مع الليبيين معارك عنيفة متكررة. ولكنهم اختلطوا بهم اختلاطا وثيقا وتبنوا تقاليدهم الجنائزية وعقائدهم وسعوا إلى التزوج بالجميلات من نسائهم. ولئن هم أسسوا مدينة برقة في أواخر القرن السادس، فقد اصطدموا بقرطاج عندما كرروا محاولاتهم التوسعية. ولم يسمح البونيقيون كذلك باستقرار دوريوس أصيل سبرتا وتحمل الآثار صورا تمثل المعارك التي شنها على الليبيين ملوك الأسرة الخامسة بمنف للقضاء على الاضطرابات التي سبقت توليهم الحكم. وذلك حوالي سنة ٢٦٠٠ . وقد كانت هذه المعارك حاسمة إذ يبدو أن الليبيين لم يهددوا مصر حتى آخر الإمبراطورية الوسطى. وبعدما صد رمسيس الثاني أحد هجوماتهم جندهم لمواجهة خطر الحتيين ( )أوائل القرن الثالث عشر(ووجدهم ابنه منوفتاحMénephtahضمن اتحاد شعوب البحر) العظيم وهو رد فعل ضد التوسع الهندي الأوروبي - وقد تحالف اللوبيون أو الليبيون مع (قراصنة الشمال الليسيين وسردان سادره أهل سغلوسSagalosوترسين أهل لمنوس) والأخائيين فكانوا أغلبية الجيش الذي هاجم الدلتا بدون نتيجة) ١٢٢٧ (. وقد يكون أصل هؤلاء اللوبيين من الأطلس فقد لوحظ أن أسمائهم وأسماء قوادهم تذكر بالضبط

(أسماء النوميديين الوارد ذكرهم في التاريخ المألوفA. Moretومهما يكن من أمر فهم .)
الذين أطلق اسمهم على ليبيا ولعبوا في تاريخ مصر، فيما بعد، دورا رئيسيا متزعمين
(كتلة غير منسجمة من التهانوTehenouوالهنديين الأوروبيين. وفي آخر الأمر اضطر)
رمسيس الثالث حوالي سنة ١١٨٩ ق م رغم انتصاره عليهم غرب "منف" أن ينزلهم في
"عشرات الآلاف" بالدلتا حيث سخروا من مراقبته.
واستغل أحد القواد الليبيين المرتزقة الفوضى التي تبعت ذلك فبسط نفوذه على
(هرقلةHierakléopolisفي مصر الوسطى)Moyenne Egypteوغزا خليفته السابع .)
(شيشونق الأولSheshonqالدلتا وقسم الأرض بين الليبيين. وأسس الأسرة الثانية)
والعشرين) ٩٥٠ (ق م. ويصور لنا الفن الشعبي الأول مرة مجتمعا شغوفا بالمعارك مخالفا
تمام المخالفة للمجتمع المصري. وخلافا لما اعتقد المؤرخون طويلا فإن أحفاد رسل الإله
(أمون القدامى ليسوا هم الذين أسسوا مملكة نباظهNapataالتي اتسعت رقعتها)
(في أواخر القرن الثامن من الشلال الأول إلى الحبشة. وأثبتت حفريات رينا(Reisner
أن الليبيين هم الذين بسطوا نفوذهم على أرض "الكوش" كما فعل ليبيو الشمال
بالنسبة للدلتا. لقد كانوا فرسانا متحمسين لجيادهم لا سائقي عربات كالفراعنة.
ولم يوجد أطوع لتعاليم أمون وكهنته من هؤلاء الأجانب المستوطنين بمصر. ولاشك أن
المدينة المصرية أشعت بواسطتهم على الليبيين الغربيين وربما بلغت أنوارها المترامية
أقصى غرب إفريقيا.
العلاقات مع العالم الإيجي والفينيقي واليوناني:
إن معلوماتنا حول علاقات الليبيين مع العالم الإيجي أقل من معلوماتنا حول
(علاقات الليبيين مع مصر، ويعتبر أ.ايفانسA. Evansأن اتصال الليبيين بالعالم الإيجي)
بين سبرتا الصغرى وسبرتا الكبرى. وفرضوا في آخر القرن السادس بعد ذلك على اليونان
( ) أن لا يتجاوزوا معابد "الفيلان" حتى لا يتوغلوا في سبرتا الكبرى)مختارMouktarولا .)
شك أنهم حجروا عليهم في القرن السادس كما حجروا على الرومان كل تجارة مباشرة
مع بلاد البربر -وإذن فإن البربر لم يعرفوا الفن المعماري والصناعة والعبادات اليونانية إلا

بواسطة الفينيقيين. ولم يتيسر للممالك البربرية أن تتاجر مع اليونان بحرية إلا بعد سقوط قرطاج، وعند ذلك أمكن لبعضهم أن يعيشوا في العواصم البربرية وأن ينشروا مدنيتهم في بلاطات الأمراء.

IIIمدينة البربر: -

١ - طريقة المقارنة:

وعندما ندرس أحوال البربر معتمدين على المراجع القليلة الموجودة نباغت باستمرار عاداتهم خلال العصور. فالكثير من مظاهر حياتهم الاجتماعية الحالية خصوصا الدينية منها تمتد جذورها إلى ماض سحيق ربما يرجع إلى ما قبل التاريخ. ولذلك نسمح لأنفسنا بالاعتماد على ملاحظات حديثة لتعويض الحلقات المفردة من الوثائق أو ربط أحداث واقعة خلال مختلف العصور تظل غامضة من دون شك. إنها طريقة دقيقة تشكو داء ليس له دواء، ألا وهو انعدام التواريخ. ولذلك يحتاج كل من اعتمد عليها إلى الحذر الشديد وإلى إحاطة بالمعارف لا يتسرب إليها الشك. ورغم ذلك فإن النتائج بصفة عامة لا تتجاوز الحقائق التقريبية والفرضيات. وبما أنه لا يمكن استعمال طريقة أحسن منها فإنها إذا استعملت بمهارة تعطي نتائج مدهشة في بعض الأحيان. فالمقارنة التي قام بها "أ. ف.ڤوتيه" بين الكاهنة وأحد قواد بني زيان أثناء الحروب الأخيرة بالمغرب الأقصى -إذ يأمر كلاهما ابنه بالاستسلام للعدو الذي كان عربيا بالأمس وفرنسا اليوم -تلقي الأضواء على جانب من جوانب العقلية القبلية. وقد اعتمد عليها "ستيفان قزال" اعتمادا كليا، فألف كتابين في نظام البربر الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وفي حياتهم المادية والفكرية والأخلاقية، وفيهما من غزارة المعلومات والطرافة ما يدعوا إلى الأخذ منها بلا احتراز.